ملامح الواقع الذهني الحضري في مجتمعنا

الدكتور قيس النوري
قسم الاجتماع ـ كلية الآداب
جامعة بغـداد

مقدمـة :

ان اهم ما يميز الاساس النفسى لحياة الفرد في مدننا الكبيرة الحديثة هو تصاعد الحفز العصبي Nervous Stimulation الناتج من التغيـر السريع والمستمر للحوافز الخارجية والداخلية • فالانسان الحضري فـي مجتمعنا يحيا حياة اختلاف وتنوع ما دام ذهنه يتعرض باستمرار لتجربـة الاستجابة لاختلاف القوى المحركة لسلوكه ، وهي قوى تولد انطباعات غير متجانسة تتعاقب في حياته اليومية دون أن تسبب له ضياعا ذهنيا ، لانـه يستطيع تمييزها عن بعضها • وهذا بعكس الانطباعات المتكررة التـي لا تختلف عن بعضها اختلافا كبيرا وأنها تتخذ لها مجرى مستمرا قائما علـى ميول سلوكية راسخة تعتمد على وعي أقل من تلك الناتجة من التراكـم السريع للانطباعات غير المألوفة أو المستجدة ، أو من زخم الانطباعـات المتلاحقة وغير المتوقعة • ان هذا الزخم هو ما يجري في المدينة الكبيرة في مجتمعنا •

فسرعة تفاعل القـوى الاقتصادية والمهنية وتنوعها في حيـاة المدينة الصناعية تشكل تناقضا ضخما مع ما كان يجـري في القرى والقصبـات في مجتمعنا من حيث الاسـس الحسية التـي اعتمدت عليها حياة الجماعـات القروية وشبه القروية القاطنة في القصبات الصغيرة • فالمدينة الحديثة تفرض

على الفرد درجة اكبر من الوعي والتيقظ لمواجهة متطلبات الحياة ومتابعة الوضعيات المختلفة المصاحبة لها ، بعكس حياة القرى والقصبات المتسمة عادة ببطء مجرى الحياة الاجتماعية واعتماد الاعمال على الميول الراسخة واتصافها بالتناسق والتجانس • وفي هذا السياق فان التركيب السايكولوجي الاعمق للحياة في المدن الضخمة يصبح شديد الوضوح بالمقارنة مع الحياة القروية المعاكسه التي ترتكز على علاقات عاطفية محسوسة بشكل أدق مما في المدن • وتتأصل تلك العلاقات في أعماق النفس والذهن وتنمو باستمرار بدعم من الممارسات التقليدية التي يعتاد عليها الافراد منذ طفولتهم المبكرة •

ان الفكر يحتل موقعا مركزيا في المراتب السايكولوجية العليا للأنسان حتى في ظروف الحياة الريفية • وهو اكثر جوانب الشخصية قدرة على التكيف للواقع • اذ لا يعوز الفكر أن يتعرض الى الهزات والانفجارات النفسية لكي يتكيف الى مجرى احداث الحياة في المدن العملاقة • فالصنف الغالب من الناس في هذه المدن على الرغم من تنوعه فهو يميل الى تطوير وسائله التي تحميه من التيارات والتناقضات التي تحصل في البيئة الخارجية والتي تهدد بحذفه خارج البناء الاجتماعي للمدينة • كل هذا يجعل من الضروري أن تكون ردود فعل الفرد في هذا الواقع لما يواجهه من تأثيرات ردود فعل عقلانية وليست عاطفية • والمتوقع أن يضاعف ذلك من وعي الانسان الحضري لحقائق ما يجري في المدن ويقظته ازاء طبيعة الاشياء • فاستجابات سكان المدن الكبيرة لظواهر حياتهم المختلفة تميل الى الجانب الفكري أو العقلي وهي لهذا أقل احساساً أو عاطفة وتتصف ببعدها عن أعماق الشخصية •

وتحت ضغوط وتأثير التقديرات والحسابات النفعية الحضرية تصبح الاعتبارات الشخصية التي كانت تلعب دوراً في التركيب القروي خارج

دائرة التفاعل الاجتماعي ما دامت لا تناسب مبدأ الربح[1] والمنفعة • وهذا كما هو معروف لا ينطبق على نمط العلاقات الاجتماعية في القصبات والقرى حيث يكون للتعارف الشخصي والمواقف العاطفية دور مركزي في تقرير قوة تلك العلاقات وتحديد اتجاهاتها وما فيها من التزامات • وما دام الانتاج في المدن الحديثة يهدف الى طرح المنتجات في السوق لتباع لزبائن غير معروفين فأن التعارف الشخصي الذي كان يخدم كاساس لعلاقة المنتج والمستهلك في المجتمعات البدائية والقروية لم يعد ممكناً ولا ضرورياً •

ويصحب توسع المدن الحديثه الكمي توسع نوعي في قدرات الافراد الفكرية خصوصاً فيما يتصل بالخبرات المتعلقة بالمهن والحرف • فتعقيد الحياة في هذه المدن لا يرجع بصورة حاصرة الى اتساعها جغرافياً أو كثرة عدد السكان فيها ، بل أن هذا التعقيد ينعكس أيضاً في تشعب دوائر العمل وفي عمق النظرة الذهنية للاعضاء وزيادة وتشابك العلاقات والتحديات الاجتماعية والاقتصادية التي تكتنف هذه النظرة •

---

١ – يرى جورج زميل Simmel زعيم المدرسة الاجتماعية الشكلية الالمانية أن العلاقات العاطفية الصحيحة التي تربط الاشخاص تعتمد على الجانب الشخصي لكل منهم ، أي أن الاهتمام الذي يبديه هؤلاء تكون بالشخص نفسه وليس بالمردودات الناتجة عن الاحتكاك به وبصرف النظر عمن يكون . ما في العلاقات العقلانية النفعية فأن الفرد يصبح مجرد رقم وهو كأي فرد آخر يجري تقديره على اساس المنافع الناتجة عن التفاعل به كما في نظرة التاجر الى لزبائن باعتبارهم افراداً مجهولين حيث أن ربحه منهم لا يتأثر بمدى معرفته أو عدم معرفته لهم .

راجع :

Georg Simmel. The Metropolis and Mental Life in Readings in Introductory Sociology edited by Dennis H. Wrong & Harry L. Gracey. The Macmillan Company, New York. 1967. PP 229—231

الميول الفرديـة :

مما يضاعف في الميول الفردية في مدننا الكبيرة هو تناقص الاتصـال الاجتماعي بين الفـرد وأقاربـه ومعارفـه بحـكم التشـتت الجغـرافي Geographical Dispersion وضيق الوقت نتيجة لكثرة الأعمال والمسؤوليات وغيرها من المعوقات التي تحول دون الاتصال المستمر • هذا الوضع كمـا اثبتت التجارب في حياتنا الحضرية من شأنه عزل الفرد عن تدخلات الاقارب وانهاء أثر ما يأتي منهم من انتقادات واعتراضات على ما يمارسه من أعمال أو يضعه من مشروعات فردية • وتكون النتيجة لكل ذلك زيادة تركيز الفـرد على خصوصيات حياته ونمو الرغبة في ترسـيخ استقلاليته في المجـالات الذوقية والترفيهية والثقافية • ومع اتساع دائرة هذه الاتجاهات الفرديـة بالنسبة للفرد الواحد وشمولها لاعداد متزايدة من سكان المدن خصوصاً الكبيرة منها فأن ملامح الشخصية المتفردة تتبلور اكثر فأكثر في سيرهـا المعاكس لنمط الشخصية القروية العامة • ومما يساعد عـلى نمو الميـول الفردية هذه في المدن الحديثة هو بعد المسافات الذهنية والنفسية بين الأفراد والتي تتجسد في ضعف التفاعـل الاجتماعي وطغيان الاعتبارات العمليـة والنفعية على العلاقات الاجتماعية وتبدل هذه العلاقات بصورة متزايدة من اشكالها المتصفة بالتعاون الوثيق وعمق العاطفة وقوة الالتزام الى الشكل الذي يتسم بسطحية التعاون وفقر العاطفة • ورغم أن هذه الاستقلاليـة الفردية تحقق للفرد الحضري درجات من الحرية لم تكن تتوفر لابناء القرى والارياف بحكم ما يقيد حياتهم من التزامات اجتماعية وطقوسية واقتصادية بالنظر لسكناهم مع جماعاتهم القرابية ، الا أن هـذه الاستقلالية الفردية لسكان المدن تجلب معها تجربة العزلة الاجتماعية وما يصاحبها من معانـاة

الوحدة والانقطاع الذهنيين[٢] وما يرافقهما من آثار سلبية كالانتحار وغيره .

ولا يغرب عن بالنا أن المدن العملاقة المتأثرة بالصناعة الحديثة وملحقاتها هي اخصب مكان لتنوع المهن والاختصاصات . وهذا التنوع المهني والاختصاصي الواسع يخلق معه تنوعاً مماثلا في المواقف المنطقية والمعرفية والاتجاهات الذوقية والجمالية والاستعدادات الاجتماعية فيسهم في تعدد نماذج الشخصية ويوسع من اختلافاتها الفردية بالقياس لواقع القرية المتجانس حيث تتماثل المهنة واساليب المعيشة وتتجانس الشخصية . كذلك يأتي عامل « العمل الصناعي » Industrial Labour كقوة جديدة في زيادة الدينامية الاجتماعية حيث تكون حركة العمال في طرح خدماتهم الانتاجية لتسيير المصانع متوائمة والمواقع الجغرافية التي تقوى فيها الحاجة الصناعية لتلك الخدمات مما يوسع من حراكهم الاجتماعي والجغرافي . وهذا التنقل على الرغم مما يولده من الشعور بعدم الاستقرار الا أنه يدعم من جهة أخرى النزعة الاستقلالية لدى الأفراد ويزيد في ثقتهم بنفسهم واعتمادهم على الذات . هذه الصورة في جوانبها الذهنية والنفسية مناقضة تماماً لتلك التي سادت في القرى . فسكنى الناس الى جوار اقاربهم

---

٢ ــ لاحظ دور كايم في دراسته المقارنة لظاهرة الانتحار أن الفرد في ظروف التحلل الاجتماعي وضعف العلاقات لاجتماعية يكون أميل للانتحار منه عندما يكون في مجتمع بناؤه الاجتماعي يتصف بالتماسك والتكامل . والطريف أن الانتحار يزداد حتى في أوقات الرخاء الاقتصادي عندما يعاني لمجتمع من ضعف العلاقات . وهكذا فأن ظروف المدينة التي لا تسمح باكثر من الحد الادنى للتواصل بين الناس تؤدي الى تفكك شخصية الافراد وظهور الاعراض المرضية لسلوكية والنفسية كظاهرة الانتحار وغيرها من الميول التي تهدد وجود الفرد والمجتمع .

راجع :

Emile Durkheim. Suicide and Social Cohesion in Lewis A. Coser & Bernard Rosenberg (eds.) Sociological Theory. The Macmillan Company. New York. 1964, PP. 177—186.

هنالك منحتهم شعوراً بالطمأنينة ازاء احتمالات المستقبل لتوقع تلقي المساعدة عند التعرض للازمات المختلفة • غير أن هذا التجاور من الناحية الأخرى لم يسمح بنمو اتجاه حب المغامرة والاعتماد على النفس والبحث عما يكمن في شخصية الأفراد من مواهب وقدرات •

كذلك يلاحظ أن طبيعة المسؤوليات في المدن سواء في الوظائف أو الاعمال الخاصة من شأنها أن تغذي الميل لتأكيد الذات عن طريق اثبات القدرة والجدارة على الأقل من زاوية اداء الاعمال حسب المواصفات الشكلية ألتي تنص عليها تعليمات وانظمة الدوائر والمؤسسات التي يوظف فيها الأفراد ، أو وفقاً للمباديء والاشكال الاجتماعية المحددة التي توجه اساليب ممارسة المهن والحرف المختلفة في ميادين الاعمال أو الاشغال الخاصة • فكل وظيفة على ضوء التحديد الدقيق لابعادها التي تميزها عن غيرها كتخصص لا يجوز الخلط بينها وبين غيرها من الوظائف[٣] • وبديهي أن هذا الحصر والتحديد يجعل نتائج العمل السلبية والايجابية ذات أثر يخص الفرد المسؤول عن ذلك العمل • فالترفيعات مثلا هي تغييرات في المواقع المالية للموظف تجري عبر حياته الوظيفية وهي تشكل أهدافاً يتطلع اليها ، وهناك تحديات تشغل ذهنه فيما يتصل بضمان تلك الترفيعات في

---

٣ ـ العزلة المهنية باعتقاد بعض المختصين وما يرافقها من خبرات ومهارات خاصة تنمي روح الاستقلال لدى الفرد وتسهم في اضعاف علاقاته الاجتماعية خارج دائرة اختصاصه . ومما يساعد على ذلك هو تبلور ما يدعى باللغة الاصطلاحية في كل مهنة تخصصية لا تسمح أو لا تشجع غير المختصين على التحدث أو التفاهم بها . وهذا بدوره يكون عاملا يقلل من التفاعل والاتصال الاجتماعي بين أهل المهنة الواحدة وغيرهم من اصحاب الاختصاصات الأخرى .

راجع :

Leonard Broom & Philip Selznick. Sociology. Third Edition Harper & Row, New York. 1963. PP. 446—47

مواعيدها • وهي أيضاً منجزات تتوقف على جهود العامل أو الموظف نفسه ولا يمكن أن تعمم على غيره أو أن يتسرب تأثيرها الى غيره من العاملين أو الموظفين • فتحديد الواجبات الوظيفية بهذا الشكل الفردي ينسجم وطبيعة تخصص الأشخاص كلا في دائرة عمله ويسهل على المؤسسات عملية تقييم اداء الأعمال • وبوحي من هذه الحدود الشكلية التنظيمية والادارية للاعباء والمسؤوليات المناطة بالاشخاص يصبح كل واحد منهم منهمكاً ذهنياً بدائرة أعماله وما يرافقها من مسؤوليات وما يترتب عليها من توقعات • فكل موظف يجلس الى طاولة ويختص بنوع معين من المراجعين ليعالج صنفاً محدداً من القضايا أو المشاكل أو المعاملات • وما يقع من تقصير في دائرة وظيفته يسهل تشخيصه وحصره في تلك الدائرة • ونظراً لاهتمام المؤسسات بمعايير التقييم ولحتمية وجود التفاوت في قابليات الموظفين والعاملين يظهر واقع ذهني ونفسي جديد يعتمد على منافسة الأفراد بعضهم بعضاً حيث يسعى كل واحد منهم الى ارضاء تلك المعايير • وطبيعي أن اختلاف ما يصيبه هؤلاء من نجاح أو فشل في الاداء يخلق تنوعاً مماثلا في نظراتهم الفردية للياقاتهم ومراكزهم في المؤسسات أو الميادين التي يعملون فيها • ولا يقتصر هذا التنوع على ظروف الوظائف الرسمية بل يتعداها الى الأعمال الخاصة Private Business مادامت امكانيات التقدم تختلف بين شخص وآخر في الاعمال المتشابهة سواء كانت تجارية أو فنية أو أدارية أو مهنية بحكم تنوع ملابسات العمل بما فيها من مستويات ثقافية أو عوامل مرتبطة بنوع الشخصية وصنف العلاقات الاجتماعية ودرجة ما في العمل من تعقيد ومدى ما فيه من عناصر الاثارة أو القلق أو التحفيز وغيرها من حقائق الاختلاف المحيطة بظروف اداء العمل الوظيفي أو المهني والتي تحدد فرص النجاح في

هذه الأعمال[٤] . وبديهي أن المنافسة التي تؤدي اليها هذه الاجواء تصبح أداة عملية لابد منها لاثبات الجدارة الفردية والظفر بدرجات مناسبة من النجاح .

ففي مهنة الطب مثلا تبرز عناصر محددة يستعان بها في دعم مركز الطبيب المهني في تنافسه مع باقي الأطباء الذين يمارسون اختصاصه . فالى جانب المعرفة والخبرة تكون لموقع العيادة والعناصر المظهرية الاخرى بما فيها من الاعلانات التي تستعمل في تجسيد نوع الجامعات والشهادات والخبرات الأخرى ، تكون لهذه العوامل أهمية كبيرة في تقرير درجات نجاح الطبيب . وبحكم تشتت هذه العوامل والعناصر تتدرج نجاحات الاطباء تدرجاً كبيراً وتتدرج معها مراتب شعورهم بالرضى المهني Proressional Satisfaction ولاشك أن هذا الاختلاف في النجاح المهني ينطبق على باقي المهن كالهندسة والقانون والتجارة والمهن الفكرية والادبية والعلمية .

---

٤ ـ هناك حقيقة مركزية استأثرت باهتمام دارسي عمليات التحضر او التمدن Urbanization وهي تزايد الاختلاف والتنوع في المدن الصناعية بصورة مطردة . ويأخذ هذا التنوع شكلين احدهما فردي أي أن النمط المتماثل لشخصية الافراد الذي كان يعتبر تجسيدا لوحدة العرف لريفي يتحول الى انماط كثيرة في المدن بحكم تفكك العرف وظهور نظم صناعية وتكنولوجية ومهنية متعددة تتطلب هذا التنوع في بناء شخصية الناس . اما الشكل الآخر فيظهر على مستوى الجماعات حيث تظهر فئات طبقية ومهنية وقيمية متعددة بحكم التركيب الاقتصادي والمهني والقومي والعقيدي والتعليمي المتنوع . على أن هذه النماذج المتنوعة من الشخصية والجماعات والفئات تتفاعل على أساس ما بينها من تفاعل تستدعيه حياة المدينة بما فيها من تنوع في الاحتياجات ونوع الخدمات وغير ذلك مما يرافق واقع الحياة الحضرية المعقد .

رجع :

Murray Stewart (ed.) The City: Problems of Planning: Penguin books. E.W. Burgess, The Growth of the City. 1972. PP. 117—129

وعند مقابلة هذه الاوضاع الوظيفية والمهنية الحضرية بظروف العمل الجماعي في الارياف والقرى والقصبات التقليدية والتي خلقت مواقف ذهنية وعاطفية متشابهة ازاء اداء العمل ونتائجه يتضح لنا أن الظروف الأخيرة قد تحولت في المدن الكبيرة المتأثرة بالتصنيع قد تحولت الى ظروف تختلف فيها هذه المواقف وما تؤدي اليه من نتائج ذهنية ونفسية • ولعل من نافلة القول أن هذا الواقع الحضري العملي والمهني الجديد يقود الى ظهور ميول جديدة تتخذ صورة التطلعات والمطامح الفردية التنافسية باعتبارها انعكاسات للوظائف المتخصصة الكثيرة وما يتصل بها من مسؤوليات وتعقيدات ذهنية وعملية •

دوامة الاستهلاك المظهري :

الاستهلاك هو حصيلة عملية لاشباع الحاجات الأنسانية بنوعيها البايولوجي أو الاساسي ، والمعنوي أو المقتبس Derived • ومعروف أن حاجات الأنسان البايولوجية كالحاجة للغذاء والكساء والماء والهواء والجنس والتي ركز الانسان عليها جانبا كبيراً من جهوده الفكرية والجسمية لعدة قرون هي حاجات محدودة بالقياس للحاجات المعنوية او المقتبسة وهي تنبع من عوامل حضارية واجتماعية لا تتأصل في جسد الأنسان كما في الحاجة للنظم العقيدية والطقوسية والتربوية والقانونية والاسرية والترفيهية •

ان ابرز ما في تقدم المدن هو الانتعاش الاقتصادي والمالي الذي ينعكس في تحسين مستويات معيشة السكان نوعياً وكمياً ، هذا التحسن الذي يمثل نقلة حضارية واجتماعية كبيرة من واقع الريف الفقير نسبياً الى حياة اكثر ازدهاراً •

ويلاحظ أن ارتقاء الواقع الاقتصادي لسكان مدننا الكبيرة قد اتخذ صوراً متعددة تتألق من بينها صورة الاستهلاك المظهري Conspicuous Consumption .(٥) والمقصود بهذا الصنف من الاستهلاك هو المبالغة بتأكيد الجوانب الجمالية والذوقية للسلع والمواد التجارية التي تقتنى من قبل الناس لغرض الظفر باعجاب الآخرين ولدعم المكانة الاجتماعية والحصول

---

٥ ـ يعتقد العالم فبلن Veblen أن الاستهلاك المظهري يغطي كافة جوانب حياة الطبقة الموسرة . وهو يرى أن هذه الظاهرة قد سبقت في وجودها ظهور الحضارات البدائية الاولى وقد اتخذت في مراحل التاريخ الاولى طابعا طقوسيا شعائريا دون أن يصحبها تراكم للثروات . أما مظهر الثراء كنظام استهلاكي مظهري فيعتبر في رأي هذا المفكر نظاما مشتقا من أصله البدائي وقد تكيف للاهداف الجديدة . أن أهم تمايز اجتماعي قديم هو انقسام المجتمع الى طبقة الرجال المسيطرة بحكم قوتها العضلية واستئثارها بمعظم الخبرات وهي قليلة ، وطبقة النساء المستغلة . والطريف أن الاستهلاك المظهري الذي تعاظم في المدن الحضرية المتقدمة قد لوحظ ايضا في بعض المجتمعات البدائية المعاصرة كمجتمع كواكيوتل Kwakiutl الهندي في أمريكا الشمالية . فهناك بحوث اثنوغرافية عن هذا المجتمع تشير الى ممارسة الاستهلاك المظهري هناك ولعل ابرز اشكال هذه الممارسة هي طقوس البوتلاج Potlach التي تتضمن قيام منافسة بين شخصين يحاول كل منهما فيها أن يثبت مكانته الارفع عن طريق اتلاف ممتلكات مختلفة أمام جمهور المدعوين الى الولائم التي تقام لهذا الغرض بالاضافة الى تقديم كميات كبيرة من الاغذية التي تفيض عن حاجة المدعوين . ومن الفعاليات التي ترافق هذه الطقوس حرق كميات كبيرة من زيوت الحيوانات البحرية التي يظنى الفرد في جمعها وهي باهضة الثمن في الاسواق ، وحرق بعض الافرشة . كل هذه وغيرها من أوجه الاتلاف والتبديد الاقتصادي تتخذ وسيلة من قبل هذه الجماعات لغرض التمتع بالاعجاب الاجتماعي والظفر بالجاه والاحترام .

راجع :

Thorstein Veblen. The Theory of the Leisure Class. A Mentor Book. The New American Library of world Literature, Inc. Third Printing. 1958. P 60.

على مزيد من الجاه والشهرة • ومع أن الاستهلاك المظهري لم يكن معدوماً في القرى والارياف خصوصاً في العهود الاقطاعية عندما كان الشيوخ يتنافسون في مضايفهم في ميدان الولائم لتجسيد غناهم وترفهم ، الا أن الاستهلاك المظهري في الريف كاد يقتصر على بذل الطعام ولم تكن هناك مجالات أخرى يمكن أن يتبارى فيها الأفراد لاثبات قدراتهم الاستهلاكية والتعريف بمراتبهم الاقتصادية •

غير أن واقع المدن الكبيرة في مجتمعنا بعد هذا النمو الاقتصادي السريع وما جلبه معه من فرص مالية للكثيرين من أصحاب المهن والحرف قد خلق ميادين واسعة للاستهلاك المظهري واوجد آفاقاً نفسية وذهنية تنافسية لم يسبق لها مثيل في تاريخنا الحضاري • ولعل ابرز مؤشرات التنافس الاستهلاكي المظهري هو هذا المدى البعيد الذي ذهبت اليه نساء المدن خصوصاً في الأسر الموسرة في اقتناء الملابس الكثيرة وتغييرها حسب تبدل الأزياء والانصراف الذهني الى متابعة ما يجري في اسواق الالبسة عن طريق التردد الدائم على هذه الاسواق • كما نلمس هذه الظاهرة في نزوع الأسر الحضرية الى الاسراف في شراء السلع المنزلية وتكديس الاثاث البيتي واختيار أصناف منه قد لا تحقق قدراً مناسباً من الراحة والخدمة بقدر ما تحققه من الانطباعات الذهنية المديحيه لدى الزوار والمعارف • فالاسراف المظهري باشكاله هذه يمثل في واقع الأمر ممارسة ذاتية فيها الكثير من مشاعر الزهو والخيلاء • والاستهلاك المظهري قد يتخذ أشكالا يجري التركيز فيها على النواحي الكمية أيضاً • ونلمس هذا النمط في تسابق الاسر في مجال خزن الاغذية والتفنن في صناعتها وحفظها واقتناء اجهزة التجميد والخزن واضافة كل ذلك الى ما في المنزل من أثاث وأدوات وقطع فنية وجمالية والاستعانة به لبلوغ الموقع المظهري اللائق في المدينة •

ولا ننسى مغالاة سكان المدن في مجال بناء البيوت الوارفه الباهضة التكاليف الزاخرة بعناصر التزويق والتجميل والتفنن المعماري والذوقي[٦]. فهذا الجانب هو الآخر يمثل صورة أخرى من صور التباهي في ميدان الاستهلاك المظهري وابتغاء الشهرة والجاه . ثم جاءت السيارة وسيلة اضافية هامة لا لتشبع حاجة الأفراد الحقيقية لخدمات التنقل والنزهة فحسب ، بل ولتعبر عن امكانيات الأفراد المالية وبالتالي عن مواقعهم الاجتماعية .

ولا يخفى أن جميع هذه الممتلكات قد أصبحت في مدننا الكبيرة في طليعة المعايير الفاعلة المؤثرة في الحراك الاجتماعي Social Mobility للأفراد ، وذلك لأنها علامات مرئية محسوسة يسهل استعمالها في التقييم الاجتماعي السريع والمباشر لتحديد مراكز الناس بحسب ما توحي به من درجات السمو أو الصعود المالي . وهذا كله قد أصبح من ملازمات الواقع الذهني والنفسي لسكان المدن نتيجة لضعف العلاقات الاجتماعية وسطحية التواصل وتعذر الاعتماد على الخصال المعنوية في تقييم شخصية الأفراد وتحديد ما يستحقونه من احترام أو اعجاب ، بعكس الممتلكات المادية المظهرية التي يسهل فهم دلالاتها كمؤشرات لمكانة الفرد المالية وموقعه الاجتماعي .

---

٦ ـ يعتبر المفكر العربي ابن خلدون اقدم من انتبه الى ظاهرة الاستهلاك المظهري فقد قابل حياة اهل البادية بحياة الحضر . وقد لاحظ أن الظروف الاقتصادية في البوادي حيث يقتصر العمل على الفلاحة وتربية الحيوان لا تسمح باكثر من الحصول على ما هو ضروري من اسباب المعيشة وهذا بعكس معيشة الحضر حيث تتسع الاحوال ويتجاوز الاشباع الحاجات الضرورية الى الحاجات الكمالية . ولاحظ هذا المفكر العظيم أن بلوغ الانسان هذا المستوى يدفعه الى التأنق في الملبس والمأكل والمسكن والمغالاة في الترف .

راجع : مقدمة ابن خلدون مطبعة المثنى بغداد . ص١٢٠ .

ان الاستهلاك المظهري لا ينحصر في مجال المواد والسلع بل يتجاوزه الى مجال استعمالات الوقت • فقد عرف عن الأنسان منذ أقدم الازمنه أنه كافح من أجل ادامة بقائه واستمر يكافح ولكن بدرجات تناقصت مع تطور التكنولوجيا التي وفرت له بصورة متزايدة وسائل أكثر واقدر لتحقيق الضمان المعاشي والأمني • فأزدهار التكنولوجيا قد جلب فيما جلب زيادة في وقت الفراغ والراحة بعد أن كان الانسان البدائي الأقدم يمضي يومه في السعي وراء لقمة العيش • على أن وقت الفراغ قد اتسع بالنسبة لسكان المدن عموماً وطبقة الموسرين خصوصاً الى درجة أنه أصبح من الادلة الاجتماعية على درجة المكانة الاجتماعية والمالية لافراد هذه الطبقة • وابرز العناصر التي تستثمر من قبل فئة الموسرين لابراز حقيقة وقت الفراغ الكبير هي استعانتهم بالخدم والاجراء للقيام بتقديم الخدمات المختلفة لهم الأمر الذي يتيح لهم المزيد من أوقات الفراغ ويجنبهم النهوض بكثير من الأعباء التي يضطر افراد الأسر الأقل يسراً الى القيام بها بانفسهم • فقيادة سيارة الاسر الموسرة وتنظيم حدائق بيوتها وطهي طعامها وتنظيف منازلها وغسل ملابسها والعناية بصغارها وغير ذلك من الخدمات التي يقدمها الأجراء تعزز ثقة هذه الأسر باهميتها الاجتماعية لأنها تدلل بوضوح على قدراتها في مجالات البذخ والاستهلاك •

ان الاستهلاك المظهري في المدن قد جاء بديلا ذهنيا ونفسيا مناقضا لقاعدة كرم الضيافة التي كانت تمثل أهم ميادين الاستهلاك في القرى والارياف • اذ كانت هذه القاعدة تلعب دوراً نفسيا واجتماعيا ايجابياً باعتبارها كانت تدفع من لديه فائض من الطعام الى تقديمه الى الآخرين من ابناء القرية والضيوف الوافدين من خارج القرية •

ولا شك أن هذه الوظيفة التي ادتها تلك القاعدة ساعدت على تقوية العلاقات الاجتماعية بين أبناء القرى وحالت دون تراكم الثروات لدى الناس ومنعت على الاكثر الفوارق الطبقية بينهم • وتلك القاعدة من ناحية أخرى كانت تمنح باذل الطعام شعوراً بالرضى عن نفسه مقابل خدمته لابناء قريته وشعوراً بالاحترام تجاهه في قريته لما في تلك الخدمة من المعاني الاجتماعية • هذه الصورة التي يجسدها كرم الضيافة تنقلب الى نقيضها في ممارسة الاستهلاك المظهري السائد في المدن الكبيرة ، لأن الأخير يفتقر الى الخدمة الاجتماعية ويقتصر على تغذية النزعات الفردية الانانية القائمة على حب الذات والانقياد الى دافع حب الظهور •

حركية المراكز والادوار :

ومن بين الحقائق الحركية التي تتألق في ميدان التحولات الاجتماعية التي حصلت في مدننا الكبرى حقيقة ذات آثار ذهنية وعاطفية عميقة وهي تبدل المراكز والادوار التي تؤلف البناء الاجتماعي الذي ينظم علاقات الأفراد في تفاعلهم اليومي • وينعكس هذا التبدل في مجموعة من الانتقالات اتخذ بعضها شكل حذف بعض الادوار التي كان لها وزن اجتماعي ونفسي كبير في حياة سكان القرى والقصبات الصغيرة وتقليص بعضها الآخر •

ومن الادوار المهمة التي كادت أن تتلاشى في المدن الكبيرة هو دور الجد أزاء الاحفاد • فتفكك الأسرة التقليدية الممتدة Extended Family التي كانت تضم جيل الاجداد والابناء والاحفاد واستحالة هذا الصنف الى نمط الأسرة النواة التي تقتصر على الزوجين واطفالهما غير المتزوجين نتيجة لاستقلال الزوجين عن أسر اهلهم وسكناهم في بيت مستقل قد أتى على نظام

الأسرة التقليدي[٧] . ولا شك أن مغادرة الأولاد أو الابناء لبيوت والديهم عند الزواج وانجاب الاطفال في بيوت مستقلة وضع الاجداد في وضعيات جديدة . فقد أصبح الحفيد في عهدة دور الحضانة ورياض الأطفال بعيداً عن جده وجدته . وواضح أن انقطاع الاجداد عن الاستمرار في ممارسة أدوارهم تجاه الاحفاد يعرضهم الى مشكلات ذهنية وعاطفية شائكة خصوصا وأن الشيوخ أو المسنين يعانون من اوقات الفراغ بحكم تقاعدهم عن الأعمال والوظائف . واذا كان الجد في القرى يمارس ادواراً هامة في شيخوخته لاعتماد التنظيم الريفي والقروي على المسنين باعتبارهم الرأس المفكر والمدبر بحكم ما تراكم لديهم من تجارب ومعارف مستقاة من العرف وهو شيء يتمتع باعلى درجات الاحترام في المجتمعات القروية ، فانه ـ أي الجد ـ لم يعد يؤدي من أدواره في المدينة شيئاً يستحق الذكر عدى واجباته العاطفية والاجتماعية تجاه زوجته اذا كانت لا تزال على قيد الحياة . أما أدواره الواسعة التي كان ينهض بها في القرية كزعيم لأسرة كبيرة تضم زوجاته وابناءه وزوجاتهم واحفاده وعدد آخر من الاقارب فقد تلاشت ولم يبق منها في الواقع سوى دوره كزوج . ومن الواضح أن فصل الاحفاد عن الجد لا يتيح

---

٧ ـ الاسرة النواة هي من ابرز الاشكال الناتجة عن عملية التحضر والتصنيع وانتشار التكنولوجيا واشتداد الحراك الاجتماعي والسكاني . وفي الوقت الذي حققت هذه التحولات للاسرة تحررها من الالتزامات والقيود القرابية الكثيرة الا أنها حرمتها من كثير من المزايا والخدمات التي كانت تمدها بها الوحدات القرابية التي ارتبطت بها كاسرة ممتدة . كما أن قيمتها واهميتها قد تقلصت نتيجة لمزاحمة المؤسسات الحضرية والصناعية والتعليمية التي حلت محلها كليا أو جزئيا في اداء بعض أدوارها التقليدية . كذلك فأن بعض العوامل الحضرية الجديدة جاءت لتفكك تماسك الاسرة وتضعف تكاملها كتنظيم انساني ظل يؤدي وظائف متعددة لاشباع كافة احتياجات الانسان .

راجع :

Kingsley, Davis. Human Society.
Collier-Macmillan Student Edition. New York. 1967. PP. 422—23.

له فرصة التعبير عن عواطف الشيخوخة تجاه الصغار وهو تعبير فيه من الارضاء العاطفي والذهني الشيء الكثير مما يدعم شخصية المسنين وينعشها نفسياً .

أما ادوار الزعامة المخصصة للمسنين في القرى والتي جرفتها عملية التمدن في مدننا الكبيرة فأن ضياعها هو الآخر يضاعف في شعور الكبار في السن بتناقص أهميتهم الاجتماعية وعدم جدوى ما اكتسبوه من تجارب ومعارف وخبرات بالنسبة للناس الذين يؤلفون سكان المدن التي يعيشون فيها . ومما يفاقم في أزمة المسنين في المدن هو أنهم لم يحصلوا على بدائل تعوضهم عن الادوار التي فقدوها لكي تعوضهم عن المصادر الذهنية والعاطفية التي كانت تتوفر لهم في ظروف الحياة القروية وترفدهم بمشاعر الرضا والاطمئنان .

كذلك تعرض مركز المرأة كأم وزوجه الى تحولات هامة جلبت معها نتائج نفسية واجتماعية خطيرة بالنسبة للمرأة واسرتها بصورة عامة . فالأسرة الحضرية نتيجة لاجتذاب المؤسسات المختلفة للنساء لغرض التوظف اصبحت تواجه أوضاعاً تستدعي تكيفاً ذهنيا ونفسيا عاليا من جانب الأم . فهي بسبب الساعات الكثيرة التي تغيبها عن البيت ولعدم وجود اقارب يشاركونها بيتها تضطر الى ايداع طفلها تحت رعاية مؤسسات متخصصة ـ دور حضانة أو رياض الأطفال . والمعروف أن الأسرة التقليدية في مجتمعنا لم تكن في أية فترة من تاريخنا تتخلى عن صغارها في عهدة أيد غريبة بل احاطتهم برعايتها هي وبمساعدة بعض الاقارب الثانويين . وقد ساد هذا النمط من الأشراف العائلي طيلة فترة الطفولة وهكذا أصبحت الأم امام الترتيبات الحضرية الجديدة تواجه وضعية تحتم عليها أن تقبل ذهنيا وعاطفيا مبدأ الانفصال عن صغارها وتركهم تحت عناية العاملين في المؤسسات المختلفة المتخصصة بالحضانة والتربية . وعليه فأن تقليص دور الام ازاء الصغار كحاضنة ومرضعة ومربية هو تحول حضاري ونفسي في آن واحد .

فمن الوجهة الحضارية أنه تحول يسهم في اخراج المرأة من قوقعة البيت ومعوقاتها التي حجبتها عن مصادر التثقيف ويضعها في خدمة مؤسسات المجتمع وفي ذلك رفع لمستوى المرأة الثقافي والاجتماعي والوظيفي. غير أن هذه النقلة الحضارية تنطوي على انتقالات نفسية وذهنية لابد من تعرض المرأة لها وتحقيق التكيف المطلوب لاستيعابها . فالصعوبات العاطفية الناتجة من الحنان والتعلق الشديدين للأم بالطفل وما يسببه لها غيابها الطويل عن البيت من قلق على صغارها بسبب عدم التعود على تركهم فترات طويلة كما تفعل الام الغربية هي بعض التعقيدات التي تواجهه الأمهات .

أما مشكلة المرأة كزوجه فتكشف عن وجه آخر لحقيقة تغير الادوار في الأسرة . فالزوجة الحضرية في مدننا الحديثة تمر بتجربة معقدة بالنظر الى أدوارها الجديدة التي اكتسبتها بحكم التوظف وممارسة الحقوق الاجتماعية الناشئة . فهي بسبب هذه الادوار قد دخلت حلبة الأعمال الوظيفية وصارت تشعر بالتوتر العصبي نتيجة تصاعد يقظتها المطلوبة للنهوض بهذه الادوار الجديدة عليها وبسبب انشغال فكرها باحتمالات النجاح والفشل المترتبة على اداء تلك الادوار ، ولم تكن المرأة الريفية أو التقليدية تتعرض الى هذا المستوى من الانشغال الذهني لأن الجانب الاكبر من الأعمال الخارجية كان جزء من مسؤولية الرجل ولم تكن المرأة نداً له بل مساعداً ثانوياً .

يضاف الى كل ذلك أن التغير السريع في المدن الكبيرة يوجد وضعاً ذهنياً ونفسياً آخراً لم يكن مألوفاً في واقع الحياة الاجتماعية للقرى والقصبات العرفية . وهو يلاحظ في تربية الأبوين للابناء .

فبالاضافة لمشكلة الرعاية الخاصة بالصغار في فترة الرضاعة والتي صارت يعهد بها لدور الحضانة ، صار الأبوان يواجهان تحديات لابد أن يحسب لها حساب دقيق لضمان التأثير الوالدي في العملية التربوية البيتية . فقد كان الابوان في القرى والقصبات يعتمدان على تجاربهما المتراكمة منذ الصغر

والمعلومات التي وفرها لهما العرف في تربية اطفالهما ، لأن تلك التجارب والمعلومات كانت تظل ملائمة لتنشئة أفراد النشىء الجديد ما دامت الحياة الاجتماعية تتصف بالرتابة العالية • هذه الصورة المستقرة التي ميزت حياة سكان القرى قد تبدلت كثيراً في مدننا الحديثة • فالابوان الحضريان يواجهان صعوبات هائلة في تربية اطفالهما في الوقت الحاضر بالنظر الى أن ما كان صالحاً للتربية في طفولتهما لم يعد مقبولا أو مناسباً لاطفالهما اليوم بحكم التحولات الاجتماعية والحضارية العميقة التي اجتاحت المجتمع • فالأم التي نشأت في صغرها متأثرة بقيم الحجاب وفصل الاناث عن الذكور تواجه اليوم صراعاً ذهنياً ونفسياً قاسياً فيعملية توجيه فتياتها اللواتي يحملن ذهنية ونظرة مختلفة تماماً بسبب أثر المدارس ووسائل الاعلام المختلفة • فالواقع الحضري الجديد يرفض مفهوم الحجاب وما يرتبط به من قيم ومواقف مما يضع الام بين خيارين صعبين في ادائها لدورها كمربية • فهي أما أن تسعى الى غرس هذا المفهوم في شخصية ابنتها فتجني عليها وتسبب لها العناء والفشل في حياة المدينة وأما أن تتخلى عن اعتقادها بهذا المفهوم وهو قد يكون اعتقاداً يتمتع بسيطرة قوية على تفكيرها وعواطفها وفي هذا صعوبة كبيرة ايضاً • ان تجدد الحياة الحضرية وسرعة تغير قواعد السلوك تجعل عملية التربية العائلية زاخرة بمشكلات التكيف الذهني والعاطفي لما تستدعيه من تفكير واجتهاد بعد أن كانت في ظروف الحياة القروية لا تتعدى التقليد والمحاكاة لكونها بالغة الرتابة والنمطية •

ومن الادوار الأخرى المركزية التي تعرضت الى تنقيح وتغيير اجتماعي وحضاري هو دور الزوج • وقد جاء هذا التغيير نتيجة للتحول الذي حصل في مركزه أو مكانته • فبعد أن كان الزوج التقليدي في نظر العرف القبلي يحتل موقع الزعامة بلا منازع ويحتكر حق أصدار القرارات في كل قضايا الاسرة ، أصبح في ظروف الحياة الحضرية الحديثة يواجه تحديات حديثة تستدعي تنقيحاً لكثير من عناصر مركزه العائلي • وبديهي أن التحوير الذي

يطرأ على أي مركز اجتماعي يؤدي بالضرورة الى تعديل ما ينطوي عليه من أدوار .

فالزوج الحضري ـ خصوصا المتعلم ـ يتحرك في علاقاته بزوجته وذهنه يتركز على مسلمات ومباديء من شأنها أن تفضى الى سلوك أكثر دمقراطية مما كان يميز سلوك الأزواج التقليديين . فالزواج الحضري الحديث الذي يعتمد على مفهوم المشاركة المتكافئة في الحقوق والواجبات الزوجية يقضى بأن تنكمش زعامة الرجل التقليدية في البيت لتتسع مكانة المرأة على حسابها الى الحد الذي يحقق تكافؤ موقع الاثنين وتعادل اسهامهما في شؤون الأسرة .

وبديهي أن هذه العملية المزدوجة لانكماش مركز الزوج واتساع مركز الزوجة تحتم على الزوج الا يكتفي بالالتزام بالجوانب الشكلية الخارجية التي تغيرت في واقع الحياة الزوجية بل وتدفعه الى ضرورة اجراء تغيير جوهري في نظرته الذهنية الى علاقته بزوجته ووضع نفسه على قدم المساواة معها بوصفها شريكة حياة . ولما كان هذا التغيير للنظرة يتطلب ليس العلم بما هو جديد من لياقات الزواج الحضري فحسب بل وتحقيق الامتصاص أو الاستيعاب الذهني والعاطفي لتلك اللياقات كممارسات فأنه ـ أي التغيير ـ يلقى مقاومة لا شعورية من جانب الازواج ويستغرق وقتا غير قليل .

من جهة أخرى أن الواقع الحضري الجديد للاسرة قد انهى بصورة عامة مباديء تقسيم العمل التقليدي بين الأنثى والذكر والذي كان يجري على أساس التفريق الفولكلوري بينهما معتبراً الذكر مؤهلاً ذهنياً وعاطفياً وعضليا واجتماعيا لممارسة بعض الاعمال دون الاناث ومعينا أعمالا أخرى للاناث باعتبارها مناسبة لهن فقط . وقد وصل الالتزام بهذا التقسيم الصارم لاعمال الجنسين في القرى والقصبات التقليدية درجة أصبح معها رفض أعمال الجنس المختلفة من قبل أعضاء الجنس الآخر رفضاً فكريا وعاطفيا وبلغ في الحالات التقليدية المتطرفة مستوى الرفض اللاشعوري . ويبدو أن ذلك

التقسيم العرفي للعمل قد خصص للمرأة اعمالا ثانوية تحجبها عن المساهمات الاجتماعية المتكافئة مع الرجال ، بينما نسب للرجال أدواراً تؤدي عمليا الى الاستئثار بالسلطة البيتية والاشراف الكلي على كل مقررات الاسرة • ان المدينة الحديثة تنطلق في مجالاتها الاقتصادية والتكنولوجية والاجتماعية من مبدأ يناقض قاعدة تقسيم العمل الجنسي ذلك هو أن جدارة الفرد بأشغال وظيفه من الوظائف تعتمد على نوع الخبرة أو المهارة التي تؤهله لها بصرف النظر عن جنسه • ومعروف أن تطبيق هذا المبدأ الذي يتلاءم وطبيعة التكنولوجيا الحديثة والتركيب الاجتماعي المتطور قد ادى الى انفتاح معظم الاعمال للذكور والاناث بدرجة متساوية • ولا شك أن هذا التحول لا يقتصر على ادخال ضوابط شكلية لاعادة تنظيم ادوار الذكور والاناث في مجالات العمل والمساهمة بل ويتضمن تكيفاً نفسيا وذهنيا لكل من الرجل والمرأة في مواقف كل منهما تجاه ميادين العمل في ضوء القيم الجديدة التي لا تنسجم وقيم الماضى التقليدي • فالاختصاصات الحديثة في مدننا مفتوحة للذكور والاناث وهذا يستدعي أن يصحب اعتراف الرجل الواعي بهذا المبدأ غير المتحيز شعور تلقائي بجدواه •

ومعروف من الدراسات الانثروبولوجية المقارنة أن شعور الأنسان ازاء التحولات العميقة المناقضة لما درج عليه من تقاليد لا يخضع لارادته بصورة كلية بل ويتأثر الى حد ما بمواقفه اللاشعورية التي اكتسبها منذ طفولته • وهذا التراكم اللاشعوري القيمي هو حقيقة تفسر لنا سبب تردد الرجال في المجتمعات التقليدية الأبوية Patrilineal Societies في قبول ممارسة النساء لبعض الأعمال ، وليس السبب لذلك انخفاض الاجور أو اخطار الوظيفة الصحية أو عدم وجود الضمان المستقبلي قدر كونه يتعلق بالمواقف القيمية التي تجعل الفرد عاجزاً ذهنياً وعاطفيا عن الشعور بالانسجام وفكرة ممارسة الأنثى لتلك الأعمال • غير أن المواقف بهذا الشكل كانت أو ذاك لا تبقى متحجرة الى الابد بل تضعف قبضتها على السلوك تدريجياً • وخير مثل على

هذا الانتقال التدريجي في مواقف الرجال السلبية ازاء ممارسة بعض المهن من قبل النساء هو تحسن نظرتهم الى مهنة التمريض التي كانت تعاني من شحة العاملات فيها بدرجة كبيرة وقد اصبحت في السنوات القليلة الماضية تلقى تأييد نسبة متزايدة من الأسر • كذلك أزدادت مواقف الرجال ايجابية ازاء احتلال المرأة موقع الاداري والطبيب والمحامي وربما ازدادت بدرجة أقل بالنسبة لاشغال النساء مركز الجندي والشرطي وعامل البانزين وسائق التاكسي وغيرها من الأعمال التي اعتبرت بناء على مواصفات التقليد القديم المتزمت أعمالاً للذكور •

ولا يفوتنا أن حذف الحدود التقليدية الفاصلة بين ادوار كل من النساء والرجال في الواقع الحضري المتطور لا يعني انكماشاً في دوائر اعمال وامتيازات الرجال وحقوقاً ومكاسب للنساء فحسب بل ومكاسب للرجال واعباءً للنساء أيضاً •

فالرجل الذي كان ينهض بالعبء الاكبر من توفير وسائل العيش لاسرته لم يعد اليوم يعاني من متاعب هذه المهمة الثقيلة بمفرده بل هو يتمتع بما تقدمه زوجته الموظفة من مساهمات مالية في دعم ميزانية الأسرة • لاشك أن هذه المشاركة تختلف بصورة جادة عن وضع الأسرة شبه الحضرية المحافظة في القصبات حيث تمارس حرف غير زراعية من قبل الرجال وتحجر النساء في البيوت • فالواقع الجديد في المدن الصناعية في مجتمعنا قد خفف من أعباء الرجال المعيشية ومنحهم درجات أكبر من الطمأنينة الاقتصادية نتيجة لدخول النساء معترك الأعمال المهنية والوظيفية • أما بالنسبة للمرأة فالحقوق الجديدة والحريات الناشئة التي حققتها هي الجانب الايجابي في ما حققته من تقدم • غير أن الجانب الآخر في نقلتها الاجتماعية يتجلى في مسؤولياتها التي اتسعت واعبائها التي نمت بحكم مضاعفة ادوارها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية • فهي اليوم ليست كاختها التقليدية التي كانت تركز كافة طاقاتها الذهنية والعضلية في دائرة الأعمال المنزلية المحدودة بل اصبحت

تحيا حياة ذهنية واجتماعية طموحة فيها تطلعات لا تختلف كثيراً عن تلك التي تخطر في اذهان الرجال • والى جانب هذه التطلعات فالمرأة الحضرية العصرية تواجه سلسلة من الهموم والمشاغل الناتجة من احتمالات الاخفاق في العمل كما يفعل الرجل ازاء هذه الاحتمالات • ولهذا فهي شريكته في القلق المهني أو الوظيفي ، وعلى هذا الاساس فحياة هذا العصر وما جلبته من عوامل بنائية وقيمية مقتبسة من موضوعية التكنولوجيا والعلم قد اسهمت في تمييع الحواجز التي كانت تجعل ادوار اعضاء الجنسين متميزه تماماً عن بعضها وقلصت المسافات النفسية والذهنية التي كانت تفصل بين النساء والرجال •

ومهما يكن الوضع النفسى والذهني لكل من الزوج والزوجة بسبب الانتقال من نظام تقسيم العمل على أساس الجنس الى نظام التخصص الموضوعي والتقني فأنه لابد من القول أن الواقع الحضري فيما يتصل بالمنزلات والادوار الاجتماعية في الاسرة وخارجها قد ادخل مباديء ومفاهيم جديدة لا تسمح للافراد باتخاذ موقف الحياد او اللامبالاة بل فرضت حالة من اليقظة والتأهب انتظمت كلا من الذكر والانثى فدفعتهما الى ابتغاء التكيف الذهني المؤدي الى تخفيف الشعور بالقلق والتعلق • فالصراع بين القديم والحديث هو حقيقة تفرض نفسها على واقع هذه التحولات الكبيرة التي تشهدها هذه العلاقات • ومع ذلك فأن عملية التكيف التي يواجهها كل من المرأة والرجل هي عملية شد وجذب ذهنيين • فالظروف المحيطة بالزوجين الحضريين على الرغم مما تولده من منافسة بينهما بسبب طموحهما لاحتلال مركز اجتماعي متكافيء في المجتمع الا أنها تقود بصورة حتمية الى تكامل ذهني وعاطفي متزايد • فالتكيف الذي يجري في شخصية كل من الاثنين يتضمن في الأعم الاغلب سعي الرجل الى التخلي عن المواقف والاتجاهات الذهنية والسلوكية التي أوجدتها التربية التقليدية والتي اصبحت معوقات خطيرة تقف في طريقه نحو مركز اجتماعي افضل بعد أن كانت مزايا يحمد عليها في الظروف التقليدية والاقطاعية •

كذلك أصبحت المرأة بحكم ما تتلقاه من تشجيع وتحفيز تركز تفكيرها على اتقان الادوار الجديدة لتثبت جدارتها بالمساواة مع الرجل • على أن هذه العملية التكيفية المزدوجة التي تضم الرجل والمرأة في مجال الادوار الحيوية المطلوبة منهما لا ينبغي أن تعرض كما لو كانت تحويرات سلوكية مبرمجة أو خاضعه للتخطيط الواعي بل هي حصيلة العديد من القوى والدوافع النفسية والاجتماعية والحضارية والتاريخية التي تتفاعل في أذهان الأفراد تفاعلا متشابكاً لا يخضع لارادتهم الا بصورة جزئية • ولهذا فالتكيف النفسى والذهني يعتبر عملية مجهدة وشاقة من النواحي العصبية والفكرية لما ينطوي عليه من صراع قيمي ذهني وعاطفي• غير أن التقارب الذي حصل بين المرأة والرجل بصورة مطردة يبرر القول بأن التكيف الذي تحقق في شخصية الزوجين قد سار في الحياة الحضرية لصالح اتجاه التكامل النفسى والاجتماعي بينهما •

الخلاصة :

ان العصر الذي نعيش فيه يمثل اهم فترة مر بها الأنسان في تاريخه الحضاري الطويل • ذلك لأن المنجزات التكنولوجية والعلمية التي حققها انسان هذا العصر تفوق كل ما انجز في الازمنة السابقة اذا ما نظرنا اليها من حيث درجة تعقيد الاختراع وما تتطلبه من عبقرية ذهنية أو من حيث فخامة النتاج وسعة اثارها في واقع الأنسان •

ويبدو أن المدن الحديثة تمثل اعلى ما بلغته عبقرية الأنسان في ميادين التقدم التكنولوجي والاقتصادي • غير أن الرقي الذي احرز في هذه الميادين لم يرافقه رقي مماثل في مجال العلاقات الاجتماعية والمواقف السلوكية • ولا يخفى على المختصين بعلوم الأنسان والمجتمع أن الفجوة القائمة بين مراتب كل من التقدم التكنولوجي والتقدم الاجتماعي قد جعلت حياة الأنسان

الحضري تفتقر الى التوازن والتكامل الذهني والعاطفي[٨] فاذا كانت التكنولوجيا قد اوجدت اساليب كثيرة وفعالة تكفل اشباع حاجات الناس المادية الضرورية والكمالية فأن الأنسان لم يستحدث من الوسائل الاجتماعية المماثلة في فاعليتها وقدرتها ما يحقق ارضاء حاجاته النفسية والذهنية • وقد ظل زخم التقدم التكنولوجي على عنفوانه وقوته دون أن يتحقق تعجيل مقارب في نمو مجالات الفكر الاجتماعي والحضاري • ولعل ذلك يظهر بوضوح عند استعراض الابعاد التكنولوجية الطاغية على حركة التنمية المعاصرة في العالم ، خصوصا العالم الغربي حيث اضحت الجوانب الاجتماعية والحضارية والفكرية والروحية والعائلية والتربوية لبناء المجتمع افلاكاً تدور في المجال التكنولوجي المسيطر •

والملاحظ أن لتجارب المجتمع الغربي بما فيها من اثار اجتماعية ايجابية أو سلبية وقعاً ملموساً في المجتمعات النامية • اذ تبدي معظم هذه المجتمعات ميلا للاستفادة من التجارب الايجابية للمجتمعات الصناعية المتقدمة وهذا بدون شك يجر في كثير من الاحيان الى التقليد والمحاكاة • فالتصنيع هو

---

٨ ـ التكامل والتوازن الذهني والنفسي يعني أن تكون استجابات الفرد للقيم والمعايير مطابقة لها وأن يشعر الفرد بانسجام داخلي (فكري وانفعالي) وتلك القيم . وهذا ما يحصل فعلا بالنسبة للمجتمعات القروية حيث تكون شخصية الافراد متوائمة وبناء المجتمع . غير أن الانتقال من النظام التقليدي الريفي والقروي الى النظام الحضري يضعف من هذه المواءمة لتناقص الانسجام والانسجام بين المعايير الجديدة المتغيرة والتركيب الذهني والنفسي للافراد ، وهذا هو أحد الاسباب الرئيسية لوقوع الانحراف السلوكي في المدن بدرجة أكبر من وقوعه في القرى . والمهم أن التطابق الظاهري لاستجابات الافراد للمعايير لا يكفي دليلا على توازن الشخصية وتكيفها الذاتي بل لابد أن يكون التطابق أو التقارب حاصلا بين الضوابط القيمية والتركيب الباطني الذهني والعاطفي .

راجع :

David Riesman, Nathan Glazer, Reuel Denny:
The Lonely Crowd. A Doubleday Anchor Book. New York. 1953. PP. 276—280.

واحد من الميادين التي تحظى باعلى درجات اهتمام المجتمعات النامية وأن التفصيلات التكنولوجية التي يعتمد عليها غالبا ما تملي على هذه المجتمعات اللجوء الى الاقتباس عن المجتمعات التي سبقتها •

غير أن المجتمعات النامية ومنها مجتمعنا تبدي تحفظاً بالنسبة لعملية الاقتباس الاجتماعي والحضاري بحكم نمو الشعور القومي وتصاعد الحرص على صيانة التراث الحضاري والقيم الاجتماعية الاصيلة • ومع ذلك فالتصنيع واعتماد التكنولوجيا في تنظيم حياة المجتمعات النامية يخلق أوضاعا اجتماعية وذهنية جديدة تؤدي بطبيعتها الى اختلال الحياة الاجتماعية التقليدية وظهور بعض أشكال الصراع الذهني والنفسى • فبعض المشكلات الحضرية التي نواجهها هي ليست ظواهر اجتماعية مقتبسة عن مجتمعات أخرى قدر كونها نتائج موضوعية ناشئة عن الوسائل والاساليب التكنولوجية الوافدة من الخارج •

فالسيارات المستوردة على الرغم من ايجابية الهدف من وراء شرائها الا أنها تجلب معها بعض المشكلات الجانبية التي تتعقد مع زيادة عددها في المدن كمشكلة تلوث البيئة ، والحوادث المفجعة ، وتعقيدات المرور الفنية والضبطية والهندسية وغير ذلك من الظواهر السلبية التي تصاحب استعمال الاعداد الكبيرة من السيارات • كذلك يؤدي انتشار المصانع الى توفر الأعمال والوظائف وتزايد الاقبال عليها وخروج المرأة من البيت للافادة من الفرص الصناعية المغرية وفي كل هذا فائدة للمجتمع • ولكن هناك مشكلات محدودة تتبع ظهور المصانع منها عدم تفرغ الامهات لرعاية اطفالهن وضعف العلاقات الاجتماعية نتيجة لانشغال الناس في العمل وتعرض الأفراد للامراض العصابية بسبب حالة الانتباه الشديد الملازمة للأعمال الصناعية الميكانيكية والآلية وما تؤدي اليه من توتر عصبي واعياء ذهني •

وهناك عامل آخر يبزغ في الافـق الاجتماعي الحضري من شأنه أن يضاعف من حالة الانتباه والتأهب الذهني ذلك هو مبدأ الانجاز Achievement كاساس لاحتلال المراكز واشغال الوظائف • فبعد أن كان العرف التقليدي في القرى والقصبات يعتمد قاعدة « التنسيب » في تحديد المراكز اعتمادا على معايير جنس الافراد • وسنهم وحالتهم الزوجية ودرجة قرابتهم فأن البنـاء الحضري يعتمد الكفاءة في منح فرص الحراك الاجتماعي للاشخاص دون أعتبار لجنسهم أو سنهم أو حالتهم الزوجية • وقد صار الفـرد الحـضري يشعر بضغط من مستلزمات التكنولوجيا الحديثة بأن المؤسسات الحضرية هي نظم غير شخصية في تقييمها لأعماله • وهكذا فأن غياب المعايير السالفة التي كانت تقرر أمل الفرد في مدى ما يتوقع من فرص في حياته المستقبلـه دونما شروط ولياقات معينة قد ادخل عنصر الكفاءة كشرط للنجاح ، وهـو عنصر لا يتحقق الا من خلال مجهودات ذهنية تبذل وتجارب وخبرات تكتسب• أنه بفضل هذه الشروط الجديدة أصبح مستقبل الأنسان مرهوناً باعمـال ارادية تبذل بعد أن كان اكثر اعتماداً في الظروف الريفية والاقطاعية علـى الأخص على اعتبارات عرفية خارجة عن ارادة الفرد وسابقة لميلاده •

هذا الظرف الجديد القائم على الكفاءة والجدارة يفتح لكل فرد أملاً ولكنه في الوقت نفسه يجعل كل فرد عرضه للنجاح بقدر ما يجعله عرضـة للفشل • ولتقليل احتمالات الفشل فان الفرد في المدينة يعتمد على ذهنه ولا يعتمد على عواطفه الا بدرجة ضئيلة •